4

طه حسين

الحاج طه حسين « عم الزعيم »

❖ دعا الجد لحفيده قائلا « إلهي تحكم بر مصر » .

❖ عبد الناصر صادر أرض أسرته لحساب القوات المسلحة.

❖ رفض إنشاء قرية نموذجية في بنى مر . وقال إنها ستكون آخر قرية نموذجية في مصر.

❖ فاز عمه بالجائزة الأولى في إنتاج القمح .فطلب عبد الناصر « التحريات اللازمة ».

obeikan.com

obeikan.com

يروى الحاج طه قصصا كثيرة عن علاقة حميمة بين الجد الحاج حسين وحفيده جمال فقد كان يفاخر به أمام أهل القرية كلهم ، وكان يبشر بين الجميع بمستقبل عظيم ينتظر حفيده « الباشا » ولم يكن هناك منصب يعرفه الرجل البسيط أكبر من منصب « الباشا » ليدعوه له به .. ولم يكن يعرف أن حفيده جمال سوف يقضى على كل الباشاوات بل وعلى « الباشاوية » ذاتها بعد سنوات قليلة ، ولكن جمال لم يكن يحب أن يسمع هذا اللقب على لسان جده أو أن يقترن اسمه به ، وحين كان يقول ذلك لجده طالبًا ألا يناديه به ، كان الجد الطيب يرجع ذلك إلى التواضع الذي يتحلى به حفيده ... فلم يكن يعلم أن هناك أسبابًا أخرى أكبر من مجرد التواضع تجعل حفيده يرفض اللقب وحامليه !

وحين انتقل جمال عبد الناصر إلى المعسكر المجاور لقرية « بنى مر » ذهب الجد على حماره إلى حفيده جمال بالمعسكر ليدعوه مع زملائه لزيارة القرية .

وفي اليوم المحدد للزيارة استعد الجد تماما لهذه المناسبة الفريدة كان هناك أحد الطباخين المحترفين الذي كان يعمل لدي أحد « الباشاوات» بالقاهرة .. وقد حضر إلى قرية « بني مر » في أجازة . فذهب إليه الجد يرجوه أن يحضر عنده منذ الصباح الباكر ليعد له مأدبة عظيمة تليق بحفيده « الباشا » وزملائه وفعلا حضر الرجل إلى منزل الحاج حسين في ذلك اليوم ليتفنن في عمل أصناف من المأكولات أراد أن يثبت بها أن طباخي « بنى مر » لا يقلون شأنا عن طباخي القصور و الباشاوات .. وبالفعل حين رأى جمال وزملاؤه عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين المأدبة فوجئوا بما حوته من أصناف فاخرة ، فنظر كل منهم إلى الآخر في دهشة وهم الذين كانوا ينتظرون الفطير « المشلتت » والجبن القديم .. لم يدركوا أن الجد البسيط كان ينظر إليهم على أنهم « أعظم » من وطأت أقدامه أرض بنى مر !!

كان الجد « حسين » يعيش وفي ذهنه نبوءة ودعوة تملآن عليه كيانه .. أما الدعوة فقد نالها بجوار بئر زمزم المقدسة حين ذهب إلى الحج مع والدته العجوز .. نزل الحاج حسين مع والدته ضمن فوج من أهل القرية في مكان قريب من بئر زمزم .. وكان الشباب الذين ضمهم فوج القرية والقرى المجاورة يتناوبون على سقاية الفوج وإحضار الماء من البئر المقدسة . وحين جاء الدور على « حسين خليل » ذهب إلى البئر لإحضار الماء فوجد زحامًا شديدًا وما كاد يفرغ من ملء القربة التي كان يحملها حتى وجد سيدة عجوز تطلب منه أن يسقيها.

كان « حسين أبو خليل »شابا ورعا يأنف من التعامل مع النساء أو النظر في وجوههن تعففا ، فما بالك وهو الآن في الأرض المقدسة ؟ رفض أن يسمع لرجاء السيدة التي طلبت منه أن يسقيها .. فدعت عليه « بالبلاء » فاقشعر بدنه خوفا ورهبة ، فعاد إليها مستسمحًا ورجاها أن تغفر له .. وقدم لها « القرّبة » كلها هدية ، فعادت السيدة العجوز وغفرت له – وحين علمت أنه من مصر . دعت له أن يخرج من صلبه « حاكم عادل » وألا يحكم فيه ظالم .. ! حمل الحاج حسين هذه الدعوة الكريمة وعاد إلى أهله ليقص عليهم ما حدث .. وحين سمعت أمه هذه الدعوة كررتها على لسانها لابنها البار . !

وبعد سنوات من ذلك اليوم المشهود جاءت إلى قرية بنى مر سيدة « عرافة » من ضاربي الودع وحين جلس أمامها الحاج عبد الناصر رضوخًا لإلحاح بعض أقاربه وأصدقائه نظرت السيدة العجوز في « طاقيته » ثم ألقت بها في حجره ، وكأنها قطعة من الجمر !

تمتمت « العرافة » ببعض الكلمات السريعة والمتلاحقة ، لم يسمع منها الجالسون سوى تكبيرات « الله أكبر » « الله أكبر » « ما شاء الله » !

وحين طالبها الجالسون تفسيرا لذلك ، قالت السيدة موجهة كلامها إلى الحاج عبد الناصر.« يخرج من صلبك من يملأ الدنيا صيتا وشهرة » .. « فيك سلطان وحاكم .. ما شاء الله »!

ازداد الحاضرون دهشة على دهشة .. من أين لهذا الرجل الفقير.الحكم والسلطان وهو الذي لا تملك أسرته من « الطين » سوى اثنى عشر فدانًا فقط ؟ !

لم يكن الحاج أقل دهشة من الحاضرين .. ولكنه كان أكثرهم أيمانا بالله ومشيئته النافذة.

ومرت الأيام وتلك النبوءة والدعوة لا تفارقان خياله ، وحين رأى حفيده « جمال » يدخل كلية الحقوق ثم « الكلية الحربية » عادت الأحلام تراود خياله من جديد لماذا لا ولا شيء يكتر على الله ؟

لم يكن الحاج حسين يتحدث عن أحلامه أمام أحد .. ربما خوفا من الحسد .. وربما إشفاقا على نفسه من سخرية الآخرين « وطريقتهم » .. ولكنه كان يصوغ أحلامه في شكل دعوة لحفيده « إلهي تعيش وتبقي باشا » .. إلهي أشوفك حاكم في الأربع عشر مديرية ، ولكن الجد لم يعش ليري أحلامه في حفيده وقد تحققت فقد مات قبل الثورة بست سنوات فقط ..!

يقول الحاج طه حسين – عم الزعيم – لقد تحققت الدعوة والنبوءة.. وجاء جمال عبد الناصر ليكون « حاكمًا عادلًا » بل ومستبدًا في عدله . !

أذكر- كما يروى الحاج طه – أنه في عام ١٩٥٨ وضعت أسرتنا يدها على بعض الأراضي من طرح النهر أمام قريتنا « بني مر » لم نكن نحن وحدنا الذين فعلنا ذلك فقد جرت العادة في صعيد مصر كله ، على أن يضع الناس أيديهم على أراضى

« الجزيرة » من طرح النهر ويقومون بزراعتها . وقد قمنا بذلك ومعنا أعداد كبيرة من العائلات الأخرى .. ولكن حين سمع جمال عبد الناصر بذلك أصدر أوامره إلى « سيد مرعي » وكان وقتها وزيرا للزراعة . بأن تستولي وزارته على الأرض التي وضعنا يدنا عليها وقمنا بزراعتها . وعلى أن يتم توزيعها على « المعدمين » و « أسر المجندين » وقد حاول سيد مرعي أن يشرح الأمر للرئيس ، ولم يكن يدافع عنا ، ولكنه كان يدافع عن وضع قانوني معترف به في وزارة الزراعة وينظمه قانون « وضع اليد » ولكنه أمام إصرار عبد الناصر لم يجد سيد مرعي مفرًا من تنفيذ الأمر فاستولت الحكومة على أرضنا وأخذتها بزراعتها . وقامت بتوزيعها فعلا على المعدمين من فلاحي القرية .. وحين هددنا يرفع الأمر إلى القضاء .. هددنا عبد الناصر بدوره بالاعتقال والتشريد وقال لنا : أنتم آخر ناس تحصل على أراضى من الحكومة طالما أنا عايش !

وفي واقعة أخرى .. قرر سعد زايد محافظة أسيوط في أواخر الخمسينيات إنشاء قرية نموذجية في « بني مر » وأصدر بالفعل قرارًا بتخصيص الأرض اللازمة للمشروع . وقامت بعض الهيئات العربية والدولية بتبني المشروع وعرضت تبرعها بالمساهمة وحين عرض الأمر على عبد الناصر بالخرائط والصور أعطي تعليماته الصارمة بوقف المشروع مؤشرا بقلمه أوافق ولكن بشرط أن تكون بني مر آخر قرية نموذجية في مصر !

وكانت النتيجة أن توقف المشروع وظلت الأرض خالية حتى وقت قريب ، حين بدأت الحكومة في بناء بعض المشروعات الخدمية بها بعد أن توسعت القرية ، واحتاجت إلى عدد من المدارس والمعاهد والعيادات.

ويقول الحاج طه : أن شقيقي الحاج عطية ظل بدون أرض أو بيت – رغم أن

الفلاحة هي مهنته التي لم يعرف غيرها حتى جاء الرئيس السادات في ذكرى الأربعين ليقدم واجب العزاء إلى الأسرة بعد وفاة عبد الناصر وحين علم بأن عطية – عم عبد الناصر – لا يملك بيتا أو أرضا – أصدر قرارًا جمهوريا بتخصيص قطعة من الأرض اقتطعت من المساحة التي كانت مخصصة للقرية النموذجية التي رفض عبد الناصر بناءها ليبنى عليها عطية بيتا له ولأولاده وهو البيت الوحيد الذي يمتلكه في قرية بنى مر .. وقد امتلكه بعد وفاة عبد الناصر الذي ظل يرفض ذلك حتى آخر يوم في حياته !

كذلك فقد رفض جمال عبد الناصر أن يطلق اسمه على المدرسة الابتدائية أو الإعدادية التي كانت في القرية وقد ظلت تحمل اسمها القديم « مدرسة بنى مر » حتى الآن . أما المدرسة الثانوية التي تحمل اسمه في قرية بنى مر فقد أنشئت بعد وفاته !

ويواصل الحاج طه حديثه عن المستبد العادل « ابن شقيقه » جمال عبد الناصر فيقول : لم يكن جمال عبد الناصر يسمح باستغلال النفوذ مطلقا .. وكان أعنف ما يكون معنا – نحن أهله و أقاربه – حين يسمع مجرد إشاعات عن استغلال النفوذ .. أذكر مثلا أنه اعتقل خاله إبراهيم حماد لمدة أربعة شهور ونفاه إلى « قنا » لمجرد أنه سمع أن الرجل يقدم نفسه للناس على أنه « خال الرئيس » .. والطريف أن خاله بعد أن أمضى فترة العقوبة خرج من المعتقل لينفي أمام الجميع أية صلة له « بالرئيس » !

وبينما كان خاله يقضى أيامه في جنيات المعتقل .. كان « جمال» يقوم بالصرف على أولاده وبيته من مرتبه الخاص وقد ذهب جمال إلى بيت خاله ، لا ليعتذر له بل لشرح له الأسباب التي حملته على ذلك.

وفي واقعة ثالثة .. بطلها هذه المرة الحاج « خليل » عمه الذي تربى جمال في بيته:

توفيت والدة جمال وهو في الثامنة من عمره وتركت وراءها أربعة أولاد كان جمال « أكبرهم » ولما كانت الحاجة « توحيدة » زوجة العم خليل « لا تنجب » فقد طلبت من زوجها أن يحضر لها أبناء أخيه عبد الناصر ليعيشوا معها كأبناء ، عوضا لها عن الأبناء الذين قدر لها الله أن يحرمها منهم وفعلا وبعد إلحاح من الحاج خليل وزوجته قبل الحاج عبد الناصر أن ينتقل أولاده مع عمهم « خليل » في القاهرة.

حاول الحاج « خليل » أن يعوض أبناء أخيه عن أمهم فتفاني في خدمتهم ومعه زوجته الحاجة «توحيدة» التي وجدت فيهم الأبناء الذين عوضوها عن حرمان السنوات الماضية.

وتمر الأيام ويصبح جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية .. بل زعيمًا عالميا مرموقًا فخرج الحاج خليل ليفاخر «بابنه » أمام الجميع .. وتحت وطأة الحرمان من الولد .. ازداد إحساس الحاج خليل بالتباهي بابنه جمال وذات يوم « سمع » الرئيس أن عمه خليل قد تلقي هدية من المليونير السعودي – المصري الأصل – « الشربتلي » فأمر بتفتيش منزل عمه فانتقلت قوات الأمن في الخامسة صباحا لتدهم شقة عمه خليل بشارع بورسعيد ، وشقته الأخرى بشارع الألفي في نفس الوقت ولكنهم لم يعثروا على شيء يستحق الذكر ، ورغم ذلك أعطى جمال تعليماته باعتقال عمه ، والتحقيق معه بشأن « الهدية » التي تلقاها من صديقه رجل الأعمال السعودي

وفي المعتقل اشتدت وطأة المرض على العم العجوز ، فذهبت زوجة الحاجة « توحيدة » إلى « ابنها » جمال لترجوه أن يفرج عن أبيه خليل. الذي يعاني سكرات الموت في المعتقل ، وحين تأكد عبد الناصر من صدق الخبر قرر الإفراج عن عمه وأمر بإدخاله مستشفي المعادي للعلاج على حسابه ، وقام بزيارته هناك . ليخفف عنه وطأة المرض ويشرح له أسبابه فيما حدث .

وبعد أيام .. كان الرئيس في صحبة الرئيس اليوغسلافي « تيتو » والهندي « نهرو » في زيارة السد العالي بأسوان وانحني سكرتيره الخاص محمد أحمد على أذنه ليقول له البقية في حياتك .. لقد توفي عمك خليل !

قطع عبد الناصر زيارته لأسوان فورا إلى الإسكندرية ليشيع جنازة عمه الذي كان قد اعتقله منذ أيام !

كان عبد الناصر يأخذ أهله « بالشبهات » فلم يكن يرفض منهم فقط أي تجاوز للقانون ، بل كان يرفض منهم حتى الأعمال القانونية التي يمكن أن تجر إلى « وجع الدماغ » أو تضعهم في دائرة « الشبهات » .. أذكر مثلًا – كما يقول العم طه – أن عمه خليل قام بإنشاء سينما في الطابق الأرضي من عمارته بشارع الحرية بالإسكندرية ، وحين علم جمال عبد الناصر بذلك اتصل بالسيد حمدي عاشور – محافظ الإسكندرية آنذاك – وأمره بالاستيلاء على السينما ومصادرة أجهزة التشغيل بها .. وحين ذهب إليه عمه خليل معترضا ، قال له « إحنا مش بتوع سينمات وملاهي » !

وبعد وفاة جمال عبد الناصر لجأ ابن الحاج خليل إلى القضاء ليستصدر حكمًا بإعادة السينما إلى الورثة . وفعلا أصدر القضاء حكما بإعادة السينما إلى ورثة الحاج خليل الذي كان قد توفي قبل عبد الناصر بشهور قليلة !

ومازال الحديث مستمرًا .. عن المستبد العادل جمال عبد الناصر يقول العم طه :

في يوم من الأيام فوجئت برجال القوات المسلحة ينزلون إلى أرضي الزراعية ويستولون عليها ،وحين توجهت إلى قائد مجموعة «الاقتحام » عرفت منه أنهم قرروا بناء معسكر لتقيم فيه وحدة عسكرية مخصصة لأعمال الحراسة على قناطر أسيوط فقلت له : ألم تجدوا غير أرضي التي أقتات منها أنا وأولادي لتقيموا

معسكركم عليها؟

رفض قائد الوحدة أية مناقشة في الموضوع قائلا إنه ينفذ الأوامر ولا يملك أن يحيد عنها .توجهت إلى الرئيس عبد الناصر في منشية البكري ،وقابلني بابتسامه اشتممت منها أنه على علم بالموضوع،فقلت له متسائلًا :ما هي مهنتي يا ريس ؟ فقال : فلاح ...قلت له : وهل يعقل أن يكون هناك فلاح بلا أرض يفلحها ! وأنت الذي توزع الأراضي على الفلاحين وتحولهم من عبيد إلى ملاك ...لم تجد غير عمك لتحوله من مالك إلى عبد ؟!

ضحك الرئيس وقال لي مهدئاً : احمد ربنا أنهم وجدوا« عندنا » أرض وأخذوها . وإذا لم نكن نحن الذين نتبرع بأرضنا للدولة والجيش ... فمن أولى منا بذلك ؟

قلت له أنا مستعد أتبرع للدولة .. ولكن ليس بكل ما أملك من أين آكل أنا وأولادي ، إذا استولوا على أرضى كلها ؟

حاول الرئيس أن يهدئ من روعي . وخرجت في نهاية الأمر دون فائدة! فوضت أمري إلى الله وعدت إلى قريتي حزيناً منكسراً .

ولكن بعد فترة وجدت الوحدة العسكرية تنتقل إلى مكان آخر تاركة الأرض ، فتوجهت إلى قائد الوحدة أسأله عن السبب ، فقال لي : إننا وجدنا المكان غير مناسب من الناحية الأمنية فقررنا الانتقال إلى مكان أكثر صلاحية ! إذن لم يكن عبد الناصر هو الذي أمرهم بإخلاء الأرض ...لم تكن غير العناية الإلهية التي أعادت أرضى إلى !

ويستمر الحوار عن « المستبد العادل » جمال عبد الناصر ... يقول العم طه حسين :

ذات يوم من أيام عام ١٩٦٣ كنت في زيارة للرئيس بمنزله فاستقبلني مرحبا

... وقال لي أنا مبسوط منك يا عمى : فقلت له خير إن شاء الله فقال لقد علمت أنك حصلت على كأس أحسن مزارع في إنتاج القمح ...إنني أدعو لزيادة الإنتاج وأحب أن تكونوا أنتم المثل والقدوة في ذلك ...وبعد ذلك عرفت أن شفيق الخشن وزير الزراعة في ذلك الوقت حين أخبره بالنبأ في اجتماع لمجلس الوزراء . قرر الرئيس أن يؤجل تسلمي كأس الإنتاج حتى يتحقق من الأمر بنفسه ، خشية أن يكون فيه شبهة مجاملة للرئيس .. فعلا جاءته التحريات مصدقة لقرار وزارة الزراعة . حيث كنت الأعلى إنتاجا في القمح في تلك السنة ففرح الرئيس بذلك مرتين : مرة لأنني ضربت المثل في العمل والإنتاج، والأخرى لأن الأمر لم يكن فيه أية شبهة للمحاباة أو المجاملة ..!